عمر والنبي

يندر أن يظفر الباحثون في طبائع الإنسان بمغنم نفسيٍّ هو أوفر ثمرة والنفس محصولًا من دراسة عمر بن الخطاب، لأن الظواهر المختلفة التي تتجلى في هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جدا في النفوس التي نعهدها، ومما يتعذر جدًّا حتى في نفوس الأفذاذ من العظماء. .

بيد أن المنغم الأكبر في هذه الدراسة إنما هو منغم الأخلاق. . لأن علم الأخلاق أحوج إلى الاستدلال بالظواهر الطبيعية، وأفقر إلى الإسناد والدعائم التي تقيمها أمثال هذه الدراسات.

فكل نفس – عظمت أو صغرت– فدراستها مغنم لعلم النفس لا شك فيه، كائنة ما كانت النتيجة التي تتأدَّى إليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدها. .

لكن الوصول إلى نتائج علم الأخلاق (فكرية تكليفية) يستنبطها الفكر الذي يختلف في صوابه كما يختلف في خطئه، ويميلها التكليف الذي يطاع ولا يطاع، ويراض عليه الإنسان رياضته على الأمر الغريب (الأجنبي) عن نوازع الطباع.

فإذا اهتدينا إلى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التي هي أقرب إلى الآمال المنشودة منها إلى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير. .

وإذا ظفرنا بحقيقة نفسية، هي في الوقت نفسه حقيقة فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنم المضاعف الذي قلما ينال.

ونفس عمر بن الخطاب هي تلك النفس التي تدعم علم الأخلاق من الأساس، وهى ذلك الصرح الشامخ الذي ننظر إلى أساسه فكأننا تسلقنا النظر إلى ذروته العليا؛ لأنه قرب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب، إذ هو التقريب الملموس.

آمال كثيرة من أمال محبِّي الخير ودعاة الإصلاح هي في نفس عمر ابن الخطاب وقائع مفروغ منها، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات. .

فمنها فيما أسلفناه أن القوة لا تناقض العدل في طبيعة الإنسان بل يكون العدل هو القوة التي تخيف فيخافها الظالمون.

ومنها فيما نحن بصدده الآن، أن القوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادر إلى الأكثرين. .

فان الأكثرين يحسبون أن الرجل الذي يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد، وأن البطل الذي يقدِّسه عشاق البطولة لا يعشق البطولة في غيرة، وأن التطلُّع إلى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين عليه، ممن هم أكبر قدرا وأحق بالإعجاب. .

لكن البطل الذي ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع، لأنه بطل يروع ويعرف روعة البطولة. . . ويستحق

الإعجاب غاية استحقاقه ثم يخيَّل إليك من فرط ولائه لمن يفوقونه انه خلق للإعجاب بغيره، ولم يخلق ليكون هو موضع إعجاب.

فعمر كان يحب محمَّدًا حبَّ إعجاب، ويؤمن به إيمان إعجاب، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمَّدٍ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس.

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة في الدعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه، وكان يعاملهم جميعًا معاملة الإخوان والزملاء فلا يغمرهم برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد، فلو جاز أن ينسى أحد فارقًا بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبيِّ هذا الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته، ولو نسيانا إلى حين.

إلا أن عمر ((العظيم)) سمع مرة من صديقه محمد عليه السلام كلمة ((يا أخي)) فظل يذكرها مدى الحياة.

استأذنه في العمرة فأن له وقال : ((يا أخي لا تنسنا من دعائك)). . . فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها (ما أحب أن لي بها ما طلعت عليه الشمس لقوله يا أخي!. .)

شهادة لعظمة محمَّدٍ أنه يؤاخي الناس كبارًا وصغارًا وإن الناس كبارًا وصغارًا لا ينسون ما في مؤاخاته من فخر وغبطة وما بينهم وبينه من فارق بعيد. . .

وشهادة لعظمة عمر أنه أهل لذلك الإخاء، لأنه يدرك ما فيه من عظمة، ويشعر مما فيهِ من رضوان.

وما يدريك ما عمر الذي يشيع في قلبه الفرح بهذا الإخاء؟. .

ليس بالرجل الذي يحب تواضع المرائين، وليس بالرجل الذي يجهل مقدار أو يهاب مخلوقًا بغير الحقِّ، وبغير الإعجاب.

عمر هذا هو الذي تولى الخلافة، وحجته الأولى في ولايتها أنه أكفأ المسلمين لها غير مدافع، وانه كما قال: (لو علمت أن أحدًا أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنقي أحبُّ إليَّ من أن أليهُ).

نعم، هذا هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم، وهو عمر الذي يستصغر نفسه إذا نظر إلى المثل الأعلى والقدوة الفضلى، وهو إذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار. .

لقد كان يسمع، وهو خليفة، يقول كالساخر وما هو بساخر: ((بخ بخ يا ابن الخطاب. أصبحت أمير المؤمنين!. .)).

أكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفًا العرب للخلافة بعد صاحبيه؟. . . كلا. . . بل كان يقولها لأنه يعرف النظر إلى المثل الأعلى.. يعرف الإعجاب بما فوقه. يعرف محمدًا ويعرف أنَّ اللحاق به أمل لا يطال. يعرف الإعجاب بطلًا معجبًا ببطل، ويشاءُ فضله أن تحصى له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه.

ومن الخطأ أن يتوهَّم المتوهِّم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر بصغره، ويتواضع لأنه يشعر بضِعَةٍ فيه.

إن الصغير لا حاجة به إلى التصاغر لأَنَّه صغير، وربما كانت حاجته الكبرى إلى مداراة شعوره الدخيل بتفخيم الرواء وتزويق الطلاء والتخايل بالمسكن والكساء. .

وإنما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد نفسه، ومحال أن تمتلئ نفس بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها، فليس لَكَ من معهودِ الطباع في حيٍّ من الأحياء، ولا نقصر القول على الإنسان.

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر، فأبى أن يركب البر ون وهو يغالب عزة الفتح داخلًا إلى الشام دخول المنتصر، وقيل له في لك فصاح بهم: خلوا سبيل جملي!. . إنما الأمر من ها هنا، وأشار إلى السماء.

وكلما اعتز من حوله، من خاصة أهله وخلصاء رعاياه، بما يرونه فيه من بسطة السلطان وعلو الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر في أذهانهم ما ينسيهم السلطان المبسوط والكلمة العالية، فقال لأصحابه يومًا وقد مر ببعض الشعاب على مقربه من مكة: "لقد رأيتني في هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب، وكان غليظًا يتعبني، ثم أصبحت وليس فوقى أحد!".

وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له : (ما حملك على ما قلت يا أمير المؤمنين؟). . . قال: (إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها).

وانظر هنا إلى كلمة (أمير المؤمنين) يقولها الابن، ثم انظر إلى كلمة (أباك) يقولها أمير المؤمنين.

ومن قبيل هذا ركوعه لله ذليلًا خاشعا يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله، فخشع لله الذي جعله يأمر أبا سفيان في شعاب مكة فيستمع لما أمر.

وليس هذا وأشباهه تصاغرًا يكشف الصغر، إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد.

****

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتمادى فيه الصفات إلى غايتها وهى متناقضة النظرة الأولى فإذا بهذا التمادي يردها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف.

فما رأيناه أنه عادل يفوق العدول، وقوى يفوق الأقوياء. . . فإذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان.

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الأصدقاء والخصوم، ثم هو في إعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعي الإعجاب.

وبقى من موافقاته النادرة أن الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال، ولا يهدد (الشخصية) بالفناء والزوال، فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ، ولا يتناقض الأمران. .

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر.

ولم يكن أحد مستقلًّا برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر. فهو آية الآيات على فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأي عند ذي الرأي الصريح. . .

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبيِّ عليه السلام برأيٍ يراه، ولو كان لك الرأي من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال.

فمحمَّدٌ في بيته وهو صاحبه، ومحمَّدٌ في شريعته وهو صاحبها، كان يستمع إلى عمر حين يقترح، وحين يستنزل الأحكام، وحين يستدعي الوحيَ في أمر من الأمور. .

فكان يشير على النبيِّ عليه السلام أن يحجب نساءه، ويبلغ ذلك إحدى أمهات المسلمين زينب فتقول له: إنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل علينا في بيوتنا!. . وتخرج إحداهن سودة وهى تحسب أن أحدًا لا يعرفها لاستتارها بالظلام ويعرفها بطول قامتها وينديها: (عرفتك يا سودة!..) ليؤكد ضرورة الحجاب. فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهنَّ إلَّا من وراء حجاب.

****

ولما همَّ النبيُّ عليه السلام بالصلاة على عبد الله بن أبيّ كبير المنافقين يوم وفاته، تحول عمر حتى قام في صدِره، وأخذ يذكِّره مساوئ عبد الله وأقاويله في النكاية بالإسلام وحكم القرآن فيه وفى أمثاله أن ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وألحَّ في التذكير حتى أكثر على النبيِّ عليه السلام وهو يبتسم ويقول له: أخِّر عنِّي يا عمر، لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له

زدت). ثمَّ صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه.. ثمَّ ما كان إلا يسيرًا كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾.

وروى أبو هريرة عن النبيِّ عليه السلام أنه أنفَذَهُ إلى رهط من المسلمين فقال له: (**اذهب إليهم فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**) فكان أول من لقي عمر. فصدَّه وعاد به إلى النبيِّ يسأله (يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أبعثت أبا هريرة من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشَّره بالجنة؟. . قال النبي: **نعم**. . فلم يتريث عمر أن قال: (فلا تفعل يا رسول الله!. . . فإني أخشى أن يكلَ الناس عليها. فخلِّهم يعملون) فوافقه عليه السلام وقال: (**فخلِّهم!**).

وفى التشريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل إلى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد في حكمه، فما زال يسأل عن الخمر حتى حرمت وبطل فيها الخلاف.

وهو الذي كانت الخمر شهوة له في الجاهلية يحبها ويكثر منها. ولو شاء لالتمس الرخصة فيها ولم يكثر من السؤال عن تحريمها، ففي سؤاله عنها وحذَّره منها فضل أكبر من الاستقلال بالرأي والإخلاص في المراجعة، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالأمر الذي لاهوادَة فيه.

وجرى صلح الحديبية الذي كان ظاهر الغُبن فيه على المسلمين وظاهر الفوز فيه للمشركين. فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصيَ

أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين. فقد غمَّه هذا الصلح غمًّا شديدًا وذهب إلى أبى بكر يراجعه ويناجيه: علام نعطى الدنية في ديننا؟. . فأجابه أبو بكر: (يا عمر الزم غرزك (أي رحلك) فإنى أشهد أنه رسول الله. وردَّد عمر إنه ليشهد إنه رسول الله ثمَّ ذهب في بعض الروايات إليه عليه الصلاة والسلام فسأله: ألسنا يا رسول الله على الحق وهم على الباطل ؟. . أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ ورسول الله يجيبه: بلى!. . فيعود يسأل: علام نعطي الدنيَّة في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟. .

فلما ناداه: **"ابن الخطاب !. . إني رسول الله !. . ولن يضيعني الله أبدًا"**، ثم علم إنه الفتح المنتصر، ثاب إلى الرضا وكف عن السؤال.

والمحنة على ما هي مما يطيقه صبر عمر وتسكن إليه سورة طبعه، فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك فيردوا من جاءهم من قريش ولا ترد إليهم قريش أحدًا ممن يجيئون إليها، وإن يكتب النبيّ اسمه في عقد الصلح فلا يكتب فيه أنه رسول الله، وهذه محنة وردت على حميَّة عمر بالوارد الجلل الذي ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العزوف. ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقمت المحنه وادلهمت الغاشية كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه. . فبينما هم يكتبون إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله. فقام إليه سهيل -وكان وكيل المشركين في عقد الصلح- فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به إلى قريش، وأبو جندل يصيح: يا معشر المسلمين، أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟. . فواساه النبيُّ ودعاه إلى الصبر

والاحتساب. ووثب عمر إليه يمشي إلى جنبه ويدني منه قائم السيف ويقول له: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون. وإنما دم أحدهم دم كلب، ورجا -كما قال بعد ذلك- أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه. . . قال: ولكنَّ الرجل ضنَّ بأبيه ونفذت القضية.

فالمحنة أعظم مما تطيقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية. ولأيًا ما سكنت نفسه واطمأنت إلى حكمة سيده ومعلمه وهاديه. ولاسيَّما حين ناداه: ابن الخطاب!. . إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا. . .

هذه المراجعة كانت من خلائق عمر التي لا يحيد عنها ولا يأباها النبيُّ عليه السلام، وكثيرًا ما جاراه واستحبَّ ما أشار به وعارض فيه. فلا جرم يراجع النبيَّ في كلِّ عمل أو رأيٍ لم يفهم مأتاه ومرماه ما أمكنته المراجعة وما قلقت خواطره حتى تثوب إلى قرار. اللهم إلا أن تستعصي المراجعة ويعظم الخطر، فهنأك تأتى الخلقية العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذي يضطلع بجلائل المهمَّات: فلما دخل النبيُّ عليه السلام في غمرة الموت، ودعا بِطِرْسٍ يملي على المسلمين كتابًا يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جدُّ خطير، وقال: إنَّ النبيَّ غلبه الوَجَع، وعندنا كتاب الله حسبنا. ومال النبيُّ إلى رأيه فلم يعد إلى طلب الطِّرسِ وإملاء الكتاب. ولو قد علم النبي أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذٍ أول المجيبين.

وكانت هذه سنته في حياة النبي وبعد موته في كل عمل لا يستريح إليه، فلم يحجم عن مراجعة أمره حيًا أو ميتًا في مسألة من مسائل الوحي الذي فيه فَصْلُ الخطاب، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض بها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع...

كذلك صنع في قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش إلى البلقاء وفيه جلة الصحابة من كبار السن والمقام. فقد ولَّاه النبيُّ القيادة ومات عليه السلام وهو في أول الطريق. فقال أسامة لعمر: (ارجع إلى خليفة رسول الله عليه السلام فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطَّفهم المشركون) وقالت الأنصار: (فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنَّا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلًا أقدم سنًّا من أسامة).

وغضب أبو بكر وكان جالسًا فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب!..استعمَلَه رسول الله وتأمرني أن أنزعه ؟. . .

فوجبت الطاعة، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة وسمع أمر الرئيس الذي لا رجعة فيه، وعمر جنديٌّ متى صرَّح له الأمر من صاحب الأمر ولم يبق له إلا أن يطيع.

وختمت سُنَّة النبيِّ بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعًا إليها من عمر، ولم تكن له وصية مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنه رسوله. إلا أنه مع هذا لم يكن يغفل

عن العلل إذا وجب البحث عن العلة التي وراء السنة النبوية، فخالف أبا بكر رضي الله عنه في إقطاعه الأرض لعيينة بن حصن والأقرع بن حابس وقال لهما: (إن رسول الله كان يتألَّفكما على الإسلام وهو يومئذٍ ذليل، وان الله قد أعز الإسلام. . . فاذهبا فاجهدًا جهدكما. . .).

فقد علم سنة النبيِّ مع (المؤلفة قلوبهم) ولم يغفل عن سببها وموقتها، فهي سُنَّة تطاع لحكمتها ولا توضع في غير موضعها، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التي ألفوها من صاحب الرسالة، إذا تغيرت الحكمة واختلفت العلة، واستغنى الإسلام عن ناصرين تتألَّفهم العطايا والأنفال.

ولمثل هذا السبب -ولاشكَّ- نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهيًّا عنهما كلَّ النهي في حياة النبيِّ عليه السلام. فكان الرجل يتزوَّج بالمرأة لأجل معلوم ثمَّ يتركها. وكان منهم من ينوي الحج ثمَّ يتحلَّل من بعض مناسكه، فنهى عنهما عمر في أيام خلافته وقال: (متعتان كانتا على عهد رسول الله عليه السلام أنا أنهي الشاهد من الصفات التي تتناقض في ظاهرها وهي على عهدنا بها في عمر؛ متفقات متساندات لا تستغني واحدة منها عن سائرها.

****

فإن لم يكن في دراسةِ عمر إلا أن نرى رجلًا عادلًا بالغًا في عدله؛ قويًّا بالغا في قوَّته؛ معجبا بالبطولة بالغا في إعجابه، مستقلا بالرأي بالغا في استقلاله؛ لكفي بذلك ظفرا لعلم الأخلاق؛ وكفى بسيرةٍ واحدة أن

تقرر لنا هذه الحقائق التي تستكثر على عشرات السير؛ وهي أن القوة لا تناقض العدل؛ وأن البطولة لا تناقض الإعجاب وأن الإعجاب؛ لا يناقض الاستقلال؛ وتلك الحقائق اثبت في عمر من معارف بدنه وملامح سماه.

وكانت مودة النبي لعمر كمودَّته للنبيِّ شرفًا له من جانبيه؛ وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهاديه.

كانت نظره محمد إليه نظره عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه فلم يكن أحد يكبر عمر كما كان يكبره أكبر عارفيه؛ ولم يكن رضاه عن مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته. . لأنه كان ينظر إلى بواعث هذه وتلك فيحمدها ويرجو للإسلام خيرا منها؛ بل يدخر للإسلام سورته كما يدخر له تسليمه وطاعته؛ ويسوسه في رفق وكرامة سياسة المعلم لتلميذه الذي يعنيه ويستعين بغيرته؛ ويروضه رياضه الإمام لمريده الذي يهيئه للإمامة بعد حين؛ ويشجعه بقبول الحسن من راية تشجيع من يثبت فيه حسن الرأي ويستزيده منه.

ولا يتأتي أن ينظر النبي الملهم إلى عمر دون أن يري فيه أولي متشابهاته للطبائع النبوية وهي الإلهام الديني والبصيرة الروحية؛ فكان عليه السلام يقول فيه: (**قد كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء؛ فان يكن في أمتي احد فعمر**).

ومن قوله في بعض ما نقل عنه عليه السلام: (**لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب**) وقوله: (**إن الله جعل الحق على لسان عمر**

وقلبه). . وقوله: **(عمر بن الخطاب معي حيث أحب وأنا معه حيث يحب؛ والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان)**.

وتلك لمحات نبيٍّ ملهم بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء وإن في هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذا إلى الضمير؛ من أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادي ضمائر؛ وفاتح عهد روحيٍّ في تاريخ الإنسان.

من تحصيل الحاصل أن نقول أن محمَّدًا قد أحاط بكلِّ فضيلة من فضائل عمر وكل خليقة من خلائق طباعِه وراقبه قبل الإسلام وبعد إسلامه فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه إلا أنه لم يحمد منه شيئا كما حمد حبَّه للحقِّ وكراهته للباطل فهي الخصلة التي تلاقيا فيها وتقاربا من قبلها وإن كان محمَّد لأرحب صدرًا وأعلَم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبه كل الشبه في علاج الحق والباطل فلا بدَّ من فارق بين الرجلين هو الفارق الذي لا بدَّ منه بين المعلم والمريد وبين الإمام والمأموم.

ولا نخالنا نلمسُ هذا الفارق كما نلمسُه من قصَّةِ الأسود بن شريع ذلك الشاعر الذي كان ينشد النبيَّ بعض الأماديح فاستنصته مرتين إذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه فصاح: واثكلاه. . من هذا الذي أسكت له عند النبي؟ فقال النبي: **(هذا عمر. . هذا رجل لا يحب الباطل)**. .

وتلك قصة تكبر عمر وتكبر النبيَّ مرات فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمدًا كان يقبل الباطل الذي يأباه عمر. أو كان يهوي اللغو الذي يعرض عمر عن سماعه.. وإنَّما يسمعها فيعلم أي الرجلين

يهدي صاحبه في مناهج الحق ويدرِّبه على كراهة الباطل ويعلم أن الإمام يطيق ما لا يطيقه المريد ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه؛ وأن محمَّدًا أراد أَن يعود الناس مهابةَ عمر؛ وأن يستبقي لعمر سَورَتَه في محاربه الضلالِ؛ والأيام كفيلةٌ بترويض تلك السَّوْرة فما ينبغي أن تراض عليه..

وهنا يتجلي مذهبان في كراهية الباطل؛ ويتجلي فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد:

فعمر كان ينكر الباطل إنكارَ المحارب ويرفَعُ له سلاحَه حيثما رآه ومحمد كان ينكره ولا يرفع سلاحه حيثما رآه. . لأنَّه يعلم ضروبًا من الباطل وضروبا من الإنكار.

ومن الإنكار أحيانا أن يتجاوز عنه، وأن يشفق عليه إشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير وأن يتربص به الأيام حتى يزول وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب، وهو بذلك قد أعد له ضروبًا من الإنكار، وكان أكمل عدة له من الراصدين له في ميدان واحد. .

أنقول أن الفارق بين محمد وعمر في هذا هو الفارق بين نبيٍّ وخليفة !؟ إن قلنا ذلك فقد قلنا حقًّا جامعًا لا شبهةَ فيه، ولكننا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء... فمحمد نبيٌّ وعمر خليفة ما في ذلك خلاف.. ولابدَّ بينهما من فارق، ما في ذلك خبر جديد. فما هو الفارق الذي يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات؟

الفارق فيما نرى هو الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم. . .

فالنبيُّ لا يكون رجلًا عظيمًا وكفى. بل لابد أن يكون إنسانًا عظيمًا فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التي تعمُّ الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء، وتهيئة للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم. فيكون عارفًا بها وإن لم يكن متصفًا بها، قادرًا على علاجها وإن لم يكن معرضًا لأدوائها، شاملًا لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه. لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة. وأخبر بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء، لأنه يملك مثلها آفاقًا كآفاقها ن هي آفاق الروح.

ومن الصغائر الآدمية التي كثيرًا ما يطيقها الإنسان العظيم، ويبرم بها الرجل العظيم كلَّ غرور صبيانيٍّ يحيك بنفوس الناس، وهو ضروب ليست لها نهاية: غرور الشاعر بأماديحه، وغرور الفنَّانِ بصنعته، وغرور المرأةِ بجمالها، وغرور الشيخ بتراثه، وغرور الأحمق بخيلائه، وغرور الجاهل بعلمه. . وفى كلِّ ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارق واضح. وتفاوت محسوس، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليمًا وهدى كما تجرى عرضًا غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين.

وعمر رضي الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه في هذه الضروب شتى الفوائد، كما ظهر من سياسته في أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبي عليه السلام بقيد الحياة.

فقد أشار على النبيِّ بقتل عبد الله بن أبىّ بن سلول حين مشى بالفتنة بين المسلمين. أبى النبي وترك عبد الله يمضي في شططه حتى

أنكره قومه وعنفوه، وتصدى له من صُلْبِه من يريد له الموت، فقال النبي لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم: **"كيف ترى يا عمر؟. . أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأُرْعِدَتْ له أنفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته"**، قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله عليه السلام أعظم بركة من أمري.

وكان عمر يستكثر صلاة النبي على عبد الله بن أبى بعد موته ويستعظم أن يهب له قميصه وأن يكفنه أهله في ذلك القميص، وكان النبي يرعى في ذلك حق ابنه الذي أخلص في إسلامه وبلغ من إخلاصه أنه اقترح على النبيِّ قتل أبيه، وسئل النبي كما جاء في بعض الروايات: لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر ؟. . فقال: إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئا، وإنني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثيرًا لهذا السبب!. . فقيل أن ألفًا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاءَ بثوبِ الرسول، وخرجت الصحابة وعمر في طليعتها بعِبرَةٍ باقيةٍ من هذا الدرس النبوي الحكيم.

وشبيه بدرس عبد الله بن أبيٍّ درس الخطيب المفوه سهيل بن عمرو الذي أُسِرَ في بدر فأشار عمر على النبيِّ بكسر ثنيتيه السفليين ليعجز عن الكلام، إذ كان مشقوق الشفة السفلى. . . فأبى النبي (عسى أن يقوم مقامًا لا تذمُّه) فما زال وما زال عمر حتَّى رآه في حروب الردَّة يقطع بلسانه كما يقطع السيف، فمحمَّد له ذلك المقام.

وجاء الفتح بعد صلح الحديبية، فرأى عمر كما رأى المعارضون معه أن قريشًا خسرت ولم تربح بالصلح الذي عارضوه، وإن المسلمين

ربحوا ولم يخسروا بقبوله. وأنهم زادوا عددًا وزادوا حلفاء من غير المسلمين، وإن الذين رفضهم النبي من تابعيه عملًا بالصلح لم ينفعوا قريشًا بل كانوا بلاء عليها أشدَّ من بلاء القتال. وبدا ذلك من مبدأ الأمر لعمر فاعتبر به وقال: (ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلَّمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا).

وتجتمع خلاصة هذه الدروس كلها في خبر واحدٍ من أخبار عمر بعد ولايته الخلافة. ذلك حين بلغوه فتح (تستر) وذكروا له أن رجلًا ارتد عن الإسلام فقتلوه، فلامهم على قتله وقال لهم : (هلا أدخلتموه بيتًا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفًا فاستتبتموه ؟. . اللهم إني لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذ بلغني).

فهذا عمر تلميذ محمَّد في الإسلام، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومن على شاكلته من المنافقين والمشركين، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس، ومعنى ذلك جميعه أن محمدًا أعظم من عمر، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم.

****

ومن تحصيل الحاصل أن نقول أن النبي عليه السلام كان يعلم ما يحتاج إليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس. فعمر لم يعوزه قط درس قوي يعلمه حبَّ الحق وكراهة الباطل لأنها خليقة متمكنة منه أصيلة فيه موشوجة بطبعه، ولكنه قد يعوزه حينًا بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولاسيما في فوعة الشباب، وألا يأسى على الحق أن

تفوقه معركة زائلة في صراعه الدائم مع خصمه القديم، فهي معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخَذ بهجمة. ولا تزال سجالًا منظورة العواقب في ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء !. .

وربَّما أعوزه ما يعوز الأقوياء في معظم الأحايين، وهو أن يذكروا أن الناس جميعًا ليسوا بأقوياء، وأن الناس جميعًا ليسوا بعمر بن الخطاب. فإذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرَّةً واحدَةً، فقد يشقُّ ذلك على آخرين، وإذا استطاع أن يتصدَّى للموت في كل لحظة فليس ذلك في وسع كلِّ مسلم، وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة إلا بعد تذكير وروية. أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلًا لما هم أهل له وكفوءًا لما هم قادرون عليه، ولهم من الشرف في نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف في تذكارها ودوام استحضارها.

وقد كان تفكير عمر كلّه على البداهة في عهد النبيِّ عليه السلام، فكان يفضى إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره، مطمئنا إلى مرجع الرأي ومقطع القول بين يديه، شاعرًا بواجبه الأول أحسن شعور في هذا المقام، لأنه شعور الرجل الكريم الذي لايضنُّ بشيءٍ من عونه فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفي باليسير منه إذا شاء، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير. .

مثل عمر في هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة فيبسط ما عنده من المال جميعًا ويدع للوالي القائم بالتدبير أن

يختار من ماله مقدار ما يريد وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين، وهو الواجب الذي يليق بعمر في صحبه الرسول. . .

ولا يحسبن قارئ أننا نعتسف التأويل والتخريج لننظر إلى عمر في أجمل الصور ونوجه أعماله أحسن توجيه. فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة في عهد في رسول الله وتفسيره، كما قال غير مرة انه كان سيفًا للرسول إن شاء ضرب به وإن شاء أغمده في قرابه، وإنه كان جلوازه القائم بين يديه، وليس من شأن الجلواز أن يمسك كثيرًا أو قليلًا من بأسه حتى يؤمر بإمساكه، ويرد إلى الهوادة واللين.

بل هذا الذي نقوله هو الذي قاله أبو بكر رضي الله عنه في شدة عمر ولينه، فكلما تحدثوا إليه بغلظته قال: إنَّما يشتد لأنه يراني لينًا، ولا غلظة على الضعفاء فيه.

فكان جميلًا بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة، وأن يحتاج فيها إلى تذكير واستحضار، وكان أفضل واجبيه لأمراء إن يعرض البأس حتى يؤبى، ثم يثوب إلى اللين ولا جناح عليه.

وهو اليقين الذي لا يخامرنا الشكُّ فيه أن عمر كان خليقًا أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل باله إليها ولم يجعل باله إلى تقديم ما عنده ((والجود بأقصى جوده)) في انتظار القول الفاصل من رأي النبيِّ عليه السلام، ولولا استعداده لفهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدرة ولا أغنت معه المثل والتجاريب.

ومهما يكن من حاجته إلى دروس من معلمه وهاديه فالذي نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة إلى تلك الدروس، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد في هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين. فما من رجل كان بين أصحاب محمَّد عليه السلام إلا كان مفتقرًا إلى جانب من جوانب هديه وتهذيبه وتقويمه وما كان عمر على التخصيص بأشدَّ افتقارًا إلى ذلك من رفاقه وتابعيه وإن اختلف ما يعوزهم من مواضع الهدي والتهذيب والتقويم.

وواضح مع هذا أنَّ الدعوة النبي عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس في مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذي يتساوي فيه أبو بكر وعمر في ذلك المقام فقد دعاه ثمَّ دعاه حتى وصل الأمر إليه رضي الله عنه فلبَّاه.

وتفصيل ذلك كما جاء في رواية البخاري أن النبي اشتدَّ عليه المرض فقال: **"مروا أبا بكر فليصل بالناس"** قالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام في مقامك لا يكاد يسمع الناس من البكاء فلو أمرت عمر فعاد النبي يقول: **"مروا أبا بكر فليصل"** فعاودته مرة أخرى فقثال: **"مروه فليصلِّ"**. . إنكن صواحب يوسف!..

****

وحدث عبد الله بن زمعة دعا النبي إلى الصلاة فقال: مروا من يصلي بالناس (فخرجتُ فإذا عمر في الناس وكان أبو بكر غائبًا فقلت: يا عمر فصلِّ بالناس فقام فلمَّا كبَّر سمع رسول الله ﷺ صوته وكان عمر

رجلا مجهرًا فقال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون. فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلي عمر تلك الصلاة فصلَّي بالناس".

قال عبد الله بن زمعة أن عمر لقيني فقال لي: ويحك..ماذا صنعت بي يا ابن زمعةَ؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك ولولا ذلك ما صليت بالناس قلت والله ما أمرني رسول الله ﷺ بذلك ولكن حين لم أرَ أبا بكر رأيتُكَ أحقَّ من حضر بالصلاة.

والواضح من كلتا الروايتين أن النبي عليه السلام قصد إلى اختبار أبي بكر للقيام في مقامه من أمامةِ المسلمين وضمن ذلك ما ضمنه من معني الاستخلاف والتقديم.

فعلى أيِّ وجه نفهم هذا الاختيار الذي صدر عن قصد ورويَّةٍ ولم يصدر عن مصادفةٍ واتفاق؟. . وعلى أيِّ وجه تساءل النبي عليه السلام حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبى بكر فقال: (**يأبى الله ذلك والمسلمون**)؟

إننا لا نفهم ذلك إلا على وجه واحدٍ يجمل بمحمَّد ويجمل بأبي بكر ويجمل بعمر ويجمل بالمسلمين:

فمن البداية أن ينظر النبيّ في اختيار خليفته إلى جميع الاعتبارات التي تدخل في الحسبان، ولا يقنع بالنظر إلى اعتبار واحدٍ.

فإذا نظر النبيُّ إلى جميع الاعتبارات فأيُّ غضاضةٍ على عمر أن يقع في الاختيار على أبي بكر ولا يقع عليه؟.

إن اختيار أبى بكر يجمع للإسلام فضائل الرجلين، ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين. ولكن الغضاضة أن يتأخَّر أبو بكر وهو أسنُّ وأسبق إلى الإسلام وثاني اثنين إذ هما في الغار، وأقمَنُ أن تبطل حوله منافسة الأنداد، وله الرأي الصائب والشجاعة المأثورة والإيمان الثابت والمسالة المرضية والحق الظاهر في الإيثار كلما قوبل بغيره من الحقوق.

ومع هذا الرجحان الذي انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه في الموقف الذي كان منظورًا بعد موت النبيِّ عليه السلام، وهو موقف رضًا ومسالمةٍ بين المسلمين يغنيانِ إذا جرت الأمور في مجراها الطيب المأمون. فإذا تأزَّمت واضطربت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه أبو بكر في رفقه وهوادته فذلك إذا موطن الإجماع، وإذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين في الأمر سواه فصلابتهم أقمن إذن أن تنعطف بلينة إلى الإجماع الذي لا شذوذَ فيه.

فالنبيُّ عليه السلام قد حسب للعواقب كلَّ حساب، وقد نظر في استخلافه إلى كلِّ اعتبار، وقد وازنَ بين أمور كثيرةٍ ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة.

ومما نظر إليه عليه السلام أنَّ عمر أصغر من أبي بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك، فدور أبى بكر لا يحجب دور عمر، وإذا انتفع الإسلام بمزايا أبى بكر في حينها الذي هو أحوج إليها فيستنفع الإسلام بمزايا عمر في الحين الذي يتولاه فيه، يوم تغنى الصلابة في مدافعة الأعداء ما أغناه الرفق في تأليف الأوداء.

ولا يحسبن قارئ هنا أيضا أننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان، فالواقع المنصوص عليه أن الذي رأيناه بعد وقوعه قد كان منظورًا إليه قبل أن ينكشف عنه الغيب. وقد نظر إليه النبيِّ عليه السلام فقال: (**أُرِيت في المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر عبقريًّا يفري فريه حتى روى الناس وضربوا بطعن**). ولم يخف معنى هذه الرؤيا على معبريها. لأنها لا تحتمل غير تعبير واحد، وهو الذي أشار إليه الشافعي -رحمه الله- ففسَّر ضعف النزع بقصر المدَّة وعجلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردَّة عن (الافتتاح والازدياد الذي بلغه عمر في طول مدته).

****

يجوز أن النبيَّ عليه السلام قد أدخل في حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره ولا نراها في عصرنا. فلهذه المسائل في جميع العصور نواحيها الموضعية ونواحيها الخاصة التي لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها الكتابة والتدوين. ومتى كانت هذه التقديرات التي فصلت في مسألة الترشيح للخلافة، فأيُّ غضاضةٍ فيها على عمر. . ؟ إنها شيء لا يتناوله وحده وليس لكفاءة أبى بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه، وإن الذي حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال ثمَّ تقديمًا للصالح في تلك الأحوال، أو تأخير موعد ومناسبة وليس بتأخير حقٍّ وكفاءة، فأبو بكر كفؤٌ للخلافة، وعمر كفؤٌ

للخلافةِ ولكنَّ تقديم أبي بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين.

وإنَّك لتكونَنَّ على ثقةٍ من حقيقةٍ واحدَةْ من رهطِ محمَّدٍ تجزم بها وأنت آمن أن تحالف التاريخ فيما بطن وفيما ظَهر. . . وذلك أنَّه عليه السلام لم يبرم قط أمرًا فيه غضاضة على أحد من أصحابه، ولاسيَّما في مسألة الاستخلاف أو التقديم للإمامة والصلاة بالناس، فكلُّ الذي حدث فيها فهو الذي يجمل بالنبيِّ من تقدير وتدبير، ويجمل عم عامل واقتدار كل تقدير.

****

بقي جانب من جوانب العلاقة بين النبي وعمر، لا يسكت عنه لكثرة ما قيل فيه، فضلًا عن وجوب النظر فيه لأنه يتمم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهمًا لها واستقصاء لمداها واطلًاعا على طريقة عمر في الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت بين يديه، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت وبين عمر وابني عمِّ النبيِّ الكبيرين عليٍّ وابن عباس بعد انتقال النبيِّ إلى الرفيق الأعلى. . .

فالذين أولعوا في التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيرًا في هذه العلاقة ويمثلون عمر على صورة الرجل الذي كان يتحدَّى بني هاشم ويناجزهم مناجزةً لعصبية فيه عليهم. ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهه أو يرجح بظن في هذه الواجهة، وكل ما حفظته لنا أبناء العصر فإنَّما تخلص بنا إلى الخلاصة التي تجمل بعمر وتحمد منه. وهى الوفاء المحض لذكرى النبيِّ عليه السلام في آله

وخاصة بيته، والأمانة المحض لمصلحة العرب والإسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة، وكل ما عدًا ذلك لغو وباطل.

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبيِّ النصيب الأوفى والمكان المقدَّم بين الصحابة، وكان لهم التفضيل في كل حقٍّ من حقوق المسلمين حسبَما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة وفضلهم عمر على أقرب الناس إليه في اللقاء والحفاوة، فكان في بعض الأيام ينتظر الحسين ابن عليٍّ رضي الله عنه فذهب إليه الحسين فلقي عبد الله بن عمر في الطريق فسأله: من أين جئت؟.. . قال: استأذنت على عمر فلم يأذن لي. فرجع الحسين ولم يذهب إليه. . ثمَّ لقيه عمر معاتبًا وسأله: ما منعك يا حسين أن تأتيني؟. . قال: قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت. . فعزَّ ذلك على عمر وقال له: وأنت عندي مثلُه؟. . وأنت عندي مثله؟. . وهل أنبت الشعر على الرَّأس غيركم؟. .

****

وكسا عمر أصحاب النبيِّ فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما. فبعث إلى اليمن فأتي لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها: الآن طابت نفسي!. .

وسافر إلى الشام فاستخلف عليًّا رضي الله عنه على المدينة وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه في قضائه متحرجًا من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله، استفتاه بعضهم في مجلسه فقال: اتبعوني، وأخذهم إلى عليٍّ فذكر له المسألة فقال على: ألا أرسلت إلى؟. . قال عمر: أنا أحقُّ بإتيانك. . .

وكذلك كان يستفتي ابن عباس في الدين والأدب، ولا يلقاه باحثًا مسترسلًا في الحديث إلا قال له معجبًا متبسطًا: غُص غوَّاص!... وقلَّما سئل في أمر وابن عباس حاضر إلا قال يشير إليه: عليكم بالخبير بها.

ولم يحجم عن توليتهم الولايات إلا كما أحجَم عن تولية الجلة من الصحابة ورؤوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه. وفى ذلك يقول لابن عباس: إني رأيت رسول الله عليه السلام استعمل الناس وترككم. . . والله ما أدري أصرفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أَهْلُ ذلك؟. . . أم أخشى أن تعاونوا لمكانتكم منه فيقع العتاب عليكم، ولابدَّ من عتاب؟

أما مسألة الخلافة فالذي يزعمه فيها الذين يخوضون في القضايا والمخاصمات أن عمر رضي الله عنه تعمَّد أن يحول بين عليٍّ والخلافة بصرفه النبيِّ عن كتابة الكتاب الذي أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضلُّ المسلمون بعده، ويزعمون أنه هو قد حال بين عليٍّ والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها.

واستكثروا من عمر صرامَتَه في دعوةِ عليٍّ إلى مبايعةِ أبي بَكر كما جاء في بعض الروايات التي يرجح صحَّتها، وخلاصتها (أنَّ عمر أتى منزل عليٍّ وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقَنَّ عليكم الدار أو لتخرجن إلى البيعة، فخرج الزبير مصلتًا بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه...) أو قال لهما في رواية أخرى: (والله لتبايعان وأنتما طائعان أو لتبايعان وأنتما كارهان).

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة، وعدُّوها من إصرار عمر على الإجحاف بعليٍّ وإقصاء بني هاشم عن الخلافة. .

أما القول بأن عمر هو الذي حال بين النبيِّ عله السلام والتوصية باختيار عليٍّ للخلافة بعده، فهو قول من السخف بحيث يسيء إلى كل ذي شأن في هذه المسألة، ولا تقتصر مساءته على عمر ومن رأى في المسألة مثل رأيه. .

فالنبيُّ عليه السلام لم يدع بالكتاب الذي طلبه ليوصي بخلافة عليٍّ أو خلافة غيره. لأنَّ الوصية بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال، أو إشارة كالإشارة التي فهم المسلمون منها إيثار أبي بكر بالتقديم، وهى إشارته إليه أن يصلِّي بالناس. . .

وقد عاش النبيُّ بعد طلب بالكتاب فلم يكرر طلبه، ولم يكن بين على وبين لقائه حائل، وكانت السيدة فاطمة زوج على عنده إلى أن فاضت نفسه الشريفة. فلو شاء لدعا به وعهد إليه. . .

وفضلًا عن هذا السكوت الذي لا إكراه فيه نرجع إلى كل سابقة من سنن النبيِّ في توليةِ الولاة فنرى أنه كان يجنب (آله الولاية ويمنع وراثة الأنبياء) وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلَّان على أنَّ محمدًا صلوات الله عليه أراد خلافةً على فحيل بينه وبين الجهر بما أراد. .

ولم يعتمد عمر على الشورى في اختيار الخليفة بعده وله مندوحة عنها. فقد رأى من أصحابه –كما قال– حرصًا سيئًا وخلافًا لا يحسمه رأي أحَدٍ، وكانت حيرته عظيمة، بين الاستخلاف وترك الاستخلاف، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة: ماذا تقول لله –عزَّ وجلَّ– إذا لقيته

ولم تستخلف على عباده أصابته كآبة. . ثمَّ نكَّس رأسه وقال: (إن الله تعالى حافظ الدين. وأي ذلك أفعل فقد سنَّ لي. إن لم أستخلف فإن رسول الله عليه السلام لم يستخلف، وإن استخلَفْتُ فقد استخلف أبو بكر).

****

واختار للشورى في أمر الخلافة أناسًا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار، وكأنهم كانوا مسمين بأسمائهم لهذه المهمة لو لم يرشحهم هو، لرشحهم لها كل مختار.

ولم يكن الفكاك من التبعة هو الذي أوحى إليه أن ينفض يديه ويلقى بالعبء على عواتق غيره. . فعمر لا ينجو بنفسه ليوقع أحدًا فيما يحاول النجاة منه، ولكنه قدر أن الرجل الذي تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الإجماع وينحسم بترجيحه النزاع. فمن خرج عليه فهو باغي فتنة يتَّبعها الأقلُّون ويردعها الأكثرون.

وكان مع هذا يود لو اجتمع الرأي على اختيار على بعد المشاورة، فقال لابنه: لو ولوها إلا جلح (أي المنحسر الشعر) لسلك بهم الطريق. فسأله ابنه: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدِّم عليًّا؟. . قال: أكره أن أحملها حيًّا أو ميتًا.

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبيِّ، والاستخلاف بعد عمر، فالسياسة التي جرى عليها عمر كانت كلها سياسة عامة قائمة على أساس عام لا تفرقه فيها بين بني هاشم وغيرهم ولا بَين عليٍّ وغيرِهِ.

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصبةٌ دون غيرها بالغَةً ما بلغت منزلتَها، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت.

كان يحجر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا بإذن وإلى أجل، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن في الناس: (إنَّ قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما في أنفسهم، ألا إن في قريش من يضمر الفرقة ويروم خلع الربقة، أما وابن الخطاب حيٌّ فلا. إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد).

وكان يزجر قومه بني عديٍّ كلما أحسَّ منهم الطمع في خلافته لأنه واحد منهم، فيصارحهم قائلًا: (بخ بخ بني عدي!. . . أردتم الأكل على ظهري، وأن أذهب حسناتي لكم، لا والله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر.) أي: وإن كتبتم في الأعطية آخر الناس. وهو الذي أبى أن يختار ابنه للخلافة وقال للمغيرة بن شعبة الذي زيَّن له استخلافه: (لا أرب لنا في أموركم، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتي، إن كان خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كان شرًّا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد). . .

****

وجمع عليًّا وعثمان في مجلس الشورى لاختيار الخليفة فالتفت إلى عليٍّ فقال: (اتق الله يا عليُّ إن ولِّيت شيئًا، فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين). .

والتفت إلى عثمان فقال : (اتق الله إن ولِّيت شيئًا فلا تحملن بني مُعيط على رقاب المسلمين) أو قال: بني أميَّة.

وكان أكبر همه أن يعصم الإسلام من الملك الذي يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس، وكثيرًا ما سأل: والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك؟! مستعيذًا بالله من كل سلطان لا يعم جميع رعاياه بالخير. . وكلمته لابن عباس حيث قال: (إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، وإن قريشًا اختارت لأنفسها فأصابت) هي كلمته حيثما تكلم في هذا الصدد لا يخص بها بيتًا دون بيت ولا معشرًا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة. . . إلا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعًا، حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء في الاتفاق. .

وما كانت لعمر صرامَة مع عليٍّ لم تكن له مع غيره في مأزق الخوف من الفتنة والذود عن الوحدة. . فقبل أن يسلم الروح كانت وصيته وهو لا يعلم من الخليفة بعده (أن اجتمع خمسة ورضوا رجلًا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلًا وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما. فإن رضي ثلاثة رجلًا منهم وثلاثة رجلًا فحكِّموا عبد الله بن عمر فأيُّ الفريقين حكَم له فليختاروا رجلًا منهم، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عمَّا اجتمع عليه الناس).

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بين الفئتين المتساويتين إلا لأنه خارج من الاختيار، ثمَّ لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجًا من رأيه إن شاءوا ألا يتبعوه. ولن يقضى بأمثل من هذا القضاء في مأزق الفتنة أحد له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب.

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذي يجمل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس. هو الحكم الذي يعم ويعدل ولا يخص ويتحيز، وهو الحكم الذي لو سئل فيه النبيُّ سيد بني هاشم لأعاد فيه قوله: **(عمر بن الخطاب معي حيث أحب وأنا معه حيث يحبُّ، والحقُّ بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان)**.

obeikandl.com